مسألة التغيير بين المأزق والمخرج

علي حرب *

أعتقد أن التحديات والأزمات لم تعد تقتصر على بلد أو آخر. فقد أمست قَدَرَ المجتمعات البشرية التي تنخرط اليوم في عصر متسارع سمته الحركة الدائمة والتغير المستمر في لغته ومهامه أو في أدواته وقواه، مما يجعل الناس: أفراداً وجماعاتٍ، على أهبة الاستعداد لما يداهمهم من التقلبات والتحولات أو الانفجارات والكوارث.

غير أن الأزمات في العالم العربي مضاعفة بقدر ما باتت التحديات الداخلية والخارجية جسيمة وخطيرة، كما تشهد المشكلات المزمنة والآفات المستعصية أو الإخفاقات المتراكمة والهزائم المتلاحقة.

في الداخل ثمة تعثُّرٌ وتراجُعٌ، أو فشلٌ وإحباطٌ من حيث العلاقة مع مجمل المشاريع والقضايا والبرامج المتعلقة بالتحديث والتنمية أو بالحرية والعدالة أو بإنتاج المعرفة والتقنية.

ومن حيث العلاقة مع الخارج طالما شكلت البلدان العربية موضوعاً للضغط من جانب القوى العظمى على الموارد والأسواق والمواقع. وبعد تفجيرات أيلول تزايدت الضغوط والتهديدات على العرب، وأصبحوا موضعاً للاتهام بالإرهاب والتخلف ومعاداة الحداثة بقدر ما صاروا هدفاً لموجات ضارية من التعصب والكره والعداء. ثم أتى سقوط بغداد لكي تسقط ورق التوت وينكشف الوضع العربي على الحقيقة المرة بؤساً وتخلفاً أو ضعفاً وهشاشة أو تفككاً وتدهوراً: فالقضايا المصيرية التي ندافع عنها لا نحسن سوى انتهاكها، والخصوصية التي نحافظ عليها تتحول إلى عزلة خانقة، والثوابت التي نتمسك بها تعيدنا إلى الوراء أو تقودنا إلى الاستسلام، والمطابقات التي نتقنها مع الذات والأصول نتردى بها إلى القاع، والآخر الذي ندعي مجابهته أو نقاومه يزداد قوة وهيمنة، فيما نزداد نحن تبعية وهامشية.

من هنا لم تعد تفي مفردات التحدي والأزمة بالقراءة والتوصيف. فثمة مفردات أخرى تحفل بها الخطابات والتحليلات مثل الهزيمة والكارثة، أو الهاوية والسقوط، أو التآكل والانقراض، الأمر الذي يضع موضع النقد والمساءلة المشروع الثقافي والحضاري، بل المصير العربي بالذات. ولكن العرب يواجهون التحديات بالأدوات القديمة التي تعيد إنتاج الأزمات على النحو الأسوأ.

إنّ ذلك كلَّه يجعلنا في وضع لا نُحْسَدُ عليه، بقدر ما يشوه صورتنا في العالم. وهذا واقع نتحمل نحن مسؤوليته بصورة كبيرة، ذلك أن سمعتنا العالمية تتوقف على وضعيتنا

الوجودية في الداخل، أي على الطريقة التي نصنع بها حياتنا ونقود مصائرنا، كما تتوقف على ما نحققه من الإنجازات ونقدمه من الإضافات المبتكرة للإسهام في صناعة الحضارة ومستقبل الكوكب. ونحن لم ننجح حتى الآن في هذه المهمة المركبة. أولا لأننا لا نحسن إدارة شأننا وَسوْسَ اختلافاتنا بعقلية مدنية تداولية حضارية، بقدر ما نستبعد الرأي الآخر وننادي بالموت للمختلف. ثانياً لأننا نستعدي العالم ولا نعترف بالآخر إلا إذا كان يشبهنا أو يقف معنا. وثالثاً لأننا حتى الآن لم نصنع شيئاً يفيد منه الناس لكي نثبت جدارتنا وننتزع الاعتراف بنا وسط الأمم.

نعم، نحن نملك سلاحين نؤثر بهما ونصدرهما للعالم: النفط والدم. ولا شك أن النفط حقق ثراءً ينعُمُ به الكثيرون في البلدان العربية، ومع ذلك لم نفلح أن نصنع من هذا المورد نموذجاً ناجحاً في التنمية. أما الدم فإنه يعود علينا بالأضرار والخسائر المادية والمعنوية كما تشهد ساحات العمل والنضال. ومن المفارقات في هذا الخصوص أنّ لدى العرب مواردَ وثروات، مادية ورمزية، غنية وهائلة. ولكنّ هناك فجوة بين ما يملكونه ويصنعونه. فالأرجحُ أنهم لا يحسنون تشغيل عقولهم ودرس مشكلاتهم، أو الانكباب على معطياتهم وتصنيع مجتمعاتهم، الأمر الذي يترجم فقراً وهُزالاً أو جهلاً وتخلفاً.

وهكذا لم نفلح في تصدير علم أو عالم أو اختراع. نعم، نحن صدَّرْنا "أحمد زويل" طالباً لكي يعود إلينا عالماً أميركيا. وصدرنا زهاء حديد طالبة لكي تتألق في الغرب كمهندسة معمارية، وربما خرقنا السقف نوعاً ما في الرواية والشعر والرسم والعمارة، ولكننا لا نؤثر في شعرنا ورواياتنا كما نتأثر، فضلاً عن أن الرواية مثلاً توزع بمئات الألوف في أوروبا واليابان وأميركا، في حين توزع عندنا بالآلاف لا غير.

من هنا نحن نفتقر إلى المصداقية والمشروعية والفاعلية في ما ندعيه من الحقوق أو ندعو إليه من المبادئ والقيم.

مكامن العجز

أين مكمن الخلل في كل هذا العجز والتردي والتفكك؟ لا مراء أن الإجابات والمعالجات متعددة وليست وحيدة الجانب. قد ندخل إلي الأزمة من مدخل السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو الإعلام.. ولكن جذر المشكلة يكمن في مرجعيات المعنى وأنماط الرؤية أو في شبكات الفهم وسلّم القيم، أي في عالم الفكر بنظامه ومسبقاته أو بقوالبه وأحكامه أو بإدارته وسياسته. ولا عجب: فالتفكير الذي هو حيلة الإنسان ومنبع إمكاناته هو سيف ذو حدين: قد نصنع به المعجزة ونخرق الشرط أو نفك الطوق، لكي ننتج المعرفة والثروة والقوة، بقدر ما نمارس علاقتنا بوجودنا بصورة حية وخصبة، خلاقة وبناءة، فعالة وراهنة. ولكن التفكير قد يولد العجز والخواء أو الجهل والعماء أو التسلط والاستبداد، وذلك بقدر ما نتعامل مع أفكارنا بصورة متحجرة ومغلقة أو أحادية وحتمية أو طوباوية وفردوسية.. وبقدر ما نتعامل مع الأحداث والحقائق على سبيل التبسيط والتهوين أو التهويل والتضليل أو التلفيق والتزييف أو التهويم والتشبيح.

وهكذا فأزماتنا وكوارثنا ليس مصدرها أقدارنا فقط، بل أفكارنا بشكل خاص، كما تتجسد في العقليات والمرجعيات والنماذج والمقولات والتصنيفات والعقائد والطقوس التي تهيمن على المشهد الثقافي العربي وتتحكم في الخطابات، لكي تنتج العوائق والمآزق وتلغم المساعي الوجودية والمشاريع الحضارية.

1. تقديس الأصول:

لعل النرجسية الدوغمائية وعقيدة الاصطفاء وتقديس الأصول هي من أبرز عوائق المشروع الحضاري، إذ هي تختم على العقل لكي تنتج النموذج المهيمن على المشهد الفكري بنسخه الثلاثة:

(1) الداعية التراثي الذي يعتقد أن المواريث القديمة تنطوي على أجوبة وحلول لكل الأسئلة والمشكلات الراهنة، أو الذي يلجأ بنوع من الزيف والسطو على المعارف إلى التفتيش عن نسب إسلامي لكل إنجاز غربي في مجال المعرفة والحقوق أو الحريات، كما هي دعوى الذي يقول لنا إن الغربيين تقدموا لأنهم أخذوا عن القرآن المنهج التجريبي في الدرس والبحث أو الذي يقول بأن الإسلام أتى ليحرر المرأة.

(2) الأبله الثقافي هو الشخص القاصر الذي يجري غسل دماغه علي يد شيخه أو أميره لكي يصبح طوع أمره بحيث ينفذ بصورة آلية ما يُملى عليه، بقدر ما يعتقد أن سعادته تتحقق في تقليد الماضين والتطابق معهم في كل ما قالوه أو فعلوه وفي مختلف شؤون الحياة وتفاصيلها الدقيقة.

(3) الأصولي الذي يدعي امتلاك مفاتيح الحقيقة والهداية والسعادة لإنقاذ الأمة الإسلامية والبشرية جمعاء من الكفر والفساد، بمعاداة التغيير والعمل على استئصال الاختلاف والتنوع، لتطبيق تعاليم وأحكام وأنماط في الفكر والعيش تحول الإسلام إلى ثقافة للتخويف والترهيب أو إلى شرطة للملاحقة والإدانة، بقدر ما تسفك الدماء وتزرع الرعب بين الناس، كما تترجم الأعمال الجهادية في غير مكان من العالم العربي.

هذا هو النموذج الذي تنتجه الثقافة الدينية الرائجة بمرشديها ورموزها الذين يملؤون الأسماع والشاشات بأحاديثهم ومواعظهم ودروسهم. والمحصلة لذلك هو التطرف والانغلاق والكسل والتحجر والادعاء والتقليد الأعمى كما يتجسّم في العجز عن تطوير العلوم القديمة أو عن افتتاح فروع علمية جديدة. ولا عجب أن هدف الدعاة ليس أن نعرف، بل أسلمة المعرفة بحيث نثبت أننا نمتلك مفاتيح الحقيقة والمعرفة بكل شيء، أو أن ما عرفه الغربيون قد سبقناهم إلى معرفته.

2. عبادة الحداثة:

الوجه الآخر للداعية التراثي هو المثقف الحداثي، من حيث العجز عن الخلق والابتكار. فالحداثيون على اختلاف منطلقاتهم، أخفقوا في تطوير العناوين والمفاهيم التي تداولوها

طوال عقود حول التقدم والاستنارة والحرية والعقلانية والحداثة، كما أنهم لم يستطيعوا ابتكار صيغ أو نظريات أو مقولات خارقة تتعدى النطاق العربي لكي تخلق مجالها التداولي على ساحة الفكر العلمي. والعلة في ذلك أنهم تعاملوا مع الأفكار الحديثة بعقلية التبشير والترويج والتقليد، بقدر ما مارسوا طقوس العبادة والتآليه للشعارات والأسماء والنصوص. في حين أن الفكرة الحية وانحلاقة تغتني وتتطور من حيث دلالاتها ومفاعيلها في أتون التجربة والمعاناة، لكي تسهم في تغيير أصحابها وفي تحويل الواقع في آن. وهكذا فإن أكثر الحداثيين أحالوا علاقتهم بمنجزات الحداثة إلى شعارات خاوية أو إلى مقولات هشة ومشاريع فاشلة تماماً، كما أن الدعاة أحالوا علاقتهم بالتراث الغني والرحب إلى معارف ميِّتة أو إلى دعوات مستحيلة وقيم مدمرة.

وتلك هي ثمرة التقديس للأفكار، أكانت حديثة أم قديمة: أن تتحول إلى أوثان لكي تطمس الحقائق وتستبد بأصحابها، بقدر ما تشل طاقة العقل على الفهم والتشخيص أو على التقدير والتدبير. فأصل الاستبداد أن تستبد بالمرء هوية أو عقيدة أو مقولة، أو أن يستعمره اسم أو أصل أو نموذج، ولو تعلق الأمر بالحرية والتقدم والعقل.

لا مراء أن في العالم العربي مفكرين وأدباء وكتاباً وفنانين مبدعين أو خلاقين في ميادين المعرفة ومجالات الثقافة. ولكنهم ليسوا الفئة الغالبة، بل هم قليلو الفاعلية والجدوى. فالسيطرة هي للوعاظ والمرشدين أو للدعاة والمناضلين أو لحراس الهوية وشرطة العقائد، وسواهم من الذين يمارسون التعمية الإيديولوجية والشعوذة الثقافية أو التشبيح القومي والتهويل الديني.

3. هواجس الهوية:

من العوامل المعيقة للتفكير الحي هواجس الهوية وعقلية المناضلة وتجنيس العلوم والعقول والمعارف بحسب التقسيمات العرقية أو الدينية أو الإقليمية بين الأنا والآخر، أي بين إسلامي وغربي أو عربي وأوروبي أو شرقي وغربي، فضلاً عن الثنائيات المستهلكة حول التراث والحداثة أو الخصوصية والعالمية. مثل هذه الثنائيات التي تغلب الاعتبارات الأيديولوجية على المشاغل العلمية تجعل العامل في ميادين المعرفة يتحول إلى داعية يدافع عن هويته الثقافية أو إلى مناضل ضد الغزو الثقافي أو الاستيراد الفكري. في حين أن الثقافة الحية والمزدهرة هي قدرتها على الانتشار والتداول خارج موطنها الأصلي. ونحن ننسى أن العرب قد فتحوا الكون وفرضوا لغتهم وعقيدتهم على أمم وشعوب كثيرة ما زالت تسمي أبناءها وتمارس شعائرها بالعربية.

ومن المفارقات الفاضحة في هذا الخصوص أن نقف موقف السلب والنفي من ثقافة الغرب وفلسفاته، على ما يفعل فلاسفتنا ونقادنا من حراس الهوية والخصوصية. فبعض منهم ينظّر عند ترجمته ديكارت، لمحو أثره، في حين أن الترجمة الخصبة عن الأجنبية تنتج تلاقحاً وتفاعلاً لتترك أثرها التحويلي الفعال في المجال الثقافي العربي، وبالعكس. أما بعضهم الآخر فإنه يتعامل مع فلاسفة الغرب كأعداء ينبغي التحرر منهم، فيما هم مخزون

فكري ينتظر من يشتغل عليه ويفيد منه لتوليد أفكار جديدة، على سبيل الإغناء والتوسيع. والأطرف أو الأكثر غفلة هو الذي يتباهى بأن بعض علماء الغرب قد تأثروا بالغ التأثر بنقادنا القدامى، فيما هو يأخذ على زملائه من النقاد العرب المعاصرين تأثرهم بالثقافة الغربية الحديثة، ولا ننسى حماة الإسلام والعروبة الذين يطلون عبر الشاشات بتهويماتهم النضالية، لكي يهاجموا الغزو الثقافي والإعلامي بألقابهم الأجنبية وأزيائهم الغربية ومعارفهم المستمدة من الجامعات الأوروبية أو الأميركية. والمحصلة لذلك هو التعامل مع الخصوصية الثقافية بصور هشة تزداد معها هامشية وفقراً بقدر ما تلغم مشاريع الإبداع الفكري والإنتاج المعرفي. وإلا- كيف نفسر أن جامعاتنا وساحاتنا ومؤتمراتنا تضج أو تمتلئ بعشرات المفكرين، والكبار من بينهم، من غير أن نتمكن من الخروج على العالم بفكرة واحدة خلاقة وخارقة أو مضيئة وكاشفة. إنها ضخامة الألقاب وهشاشة الأفكار.

4. الأحادية الضدية:

الأحادية في التفكير والعمل هي مقتل المساعي والمشاريع، أيًّا كان الاسم والمرجع والنموذج، أي سواء أكان الشعار الله أم الإنسان، العقل أم الدين، التراث أم الحداثة، اليمين أم اليسار، ثورة الفقراء أم حرية النساء.

فمن يمارس الأحادية أو الوحدانية يفكر بصورة مانوية، مغلقة وضدية، بالعمل على استبعاد الآخر أو إعلان الحرب عليه، شعاره في ذلك: أنا أو لا أحد، أو من ليس على شاكلتي فهو ضدي، في حين أن التفكير المنتج يحتاج دوماً إلى الوسائط والتوسطات. ومن يفكر بصورة أحادية يفتش دوماً عن الحلول القصوى والنهائية أو الحتمية، كمن يقول لك: الإسلام هو الحل، أو الديمقراطية هي العلاج، في حين أن الحلول والمعالجات هي معادلات أو صيغ تقريبية أو تركيبية تكون دوماً مدار الاختبار بقدر ما تكون قيد التجديد والتطوير، على سبيل الترميم والتطعيم أو إعادة البناء والتركيب. وأخيراً فالذي يفكر بصورة أحادية يتعامل مع الواقع بصورة وحيدة الجانب على سبيل التبسيط والاختزال أو السلب والحجب. في حين أن الذي يفكر بصورة خلاقة وغنية، إنما ينظر إلى الواقع بعين مركبة بوصفة جملة من الإمكانات، أي معطى يحتاج إلى من يشتغل عليه على سبيل السبر والاستغلال أو الصرف والتحويل.

والمثال الحي على ذلك أن الكثيرين ينظرون الآن إلى الحدث العراقي نظرة نضالية إيديولوجية إما بوصفه تحريراً وإما بوصفه احتلالاً. غير أن أميركا ليست حركة تحرير. ولكنها ليست أيضا قوة يستحيل خرقها، خاصة في هذا العصر حيث تتآكل الحدود بين الدول والمجتمعات، وتتعولم العلاقات والهويات، بصورة تجعل من المتعذر على أي قوى أن تضمن أمنها أو غذائها بمعزل عن سواها. فالأحرى والأجدى التعامل مع كل تغير بوصفه فرصة، وذلك بإخضاع الحدث الذي أنتجه للدرس والتحليل أو للتأويل والتوظيف، لتحويله إلى واقعة معرفية أو سياسية أو اقتصادية أو استراتيجية تفعل فعلها وتنتج أثرها الفعال في تغيير صورة الواقع.

5. عقلية القصور:

القاصر هو مَنْ لا يحملُ المسؤوليةَ عن نفسه وعمله، بل يلقيها على غيره. هذا دأبنا على الدوام: نحن لا نتراجع ولا نعتذر، لا يعترف أحدنا بفشله لكي يستقيل من مهمته، بل نعاند ونكابر بقدر ما نهرب من محاسبة الذات ووضع الأقوال والأفعال على مشرحة النقد والفحص أو الجرح، لاجتراح إمكانات جديدة للمعرفة والعمل. لذا ترانا نحمل على الآخر ونحمّله تبعة مصائبنا وكوارثنا، ونتقن اختراع الأعداء في الداخل وفي الخارج للتغطية على عجزنا وضعفنا أو لتبرير فشلنا وسقوطنا. بذلك نشهد على جهلنا وتخلفنا ونفضح شهوتنا لممارسة الإبادة والدمار، بقدر ما نثبت أننا لا نحسن سوى طعن أو تخريب القضايا التي ندافع عنها، على ما يمارس علاقته بها الأصوليون على اختلاف نسخهم وأصنافهم، وكما يتجسد ذلك سواء لدى السلفيين القدامى من الإسلاميين أو لدى الرجعيين الجُدد من الماركسيين والقوميين.

والقصور بوصفه تهرباً من المراجعة والنقد وجهه الآخر الخوف من المتغيرات وإتقان لغة الندب والشكوى في مواجهة التحولات، بالتقوقع أو بالتراجع الدائم إلى الوراء. والمثالات دوماً فاضحة: إن العالم يتغير ويعاد تشكيله من انهيار جدار برلين إلى تفجيرات منهاتن، ومن الحرب في كوسوفو إلى سقوط كابول وبغداد. ومع ذلك فنحن نواجه مثل هذه المتغيرات بالأدوات القديمة، بل باللجوء إلى ما هو متقادم أو مفلس أو متآكل من المفاهيم والأساليب أو المؤسسات والتقاليد.

لنتأمل موقفنا من بعض الأحداث والتحولات التي تصنع المشهد العالمي. بعضنا يخشى على الحداثة مما بعد الحداثة، مع أننا لم ننجح في المشاركة في صناعة الحداثة، بل بقينا على الهامش وفي موقع المتلقي والمستهلك. كذلك نحن خائفون من العولمة بتقنياتها وشبكاتها وأسواقها، ولذا ترانا نتمسك بالعالمية الآفلة، مع أننا لم نفلح قبل عصر العولمة في ممارسة خصوصيتنا بصورة عالمية، خلاقة وخارقة، أي لم نمارس حضورنا على المسرح الدولي بوصفنا لاعبين فاعلين عبر إبداعاتنا أو اختراعاتنا. وأخيراً نحن ننتقد أصولية بعض السياسات الغربية وأحاديتها القطبية، فيما نحن نعاني من فائض أصولي ونمارس الأحادية بأعلى درجاتها وأضيق دوائرها. وهكذا لا مصداقية لنا في ما نتمسك وندافع عنه، لأننا نفكر ونعمل بصورة مقلوبة أو عقيمة أو قاتلة، بقدر ما نغلب عقلية الحراسة ونتقن لغة الشكوى على لغة الفهم ومنطق المعرفة. ولا عجب أن نهمش أو نحصد ما نشكو منه أو أن ننصب الأفخاخ لغيرنا لكي نقع فيها من جراء عقولنا المفخخة وعقلانياتنا القاصرة وأدواتنا المفلولة أو الصدئة.

6. الخروج من المأزق:

إن الخروج من المأزق يحتاج إلى تغيير المهمة الوجودية والعدة المعرفية، وبصورة تطال علاقاتنا بمختلف مفردات حياتنا. والمهمة الآن هي نقدية بقدر ما هي نضالية. بل هي نقدية بالدرجة الأولى، بعد أن أتخمنا نضالات فاشلة ودفاعات أو مقاومات تضرّ بنا

أكثر بكثير مما تضر بمن نعتبرهم خصومنا وأعداءنا. فلنسأل أنفسنا عما تفعله بنا أفكارنا: لماذا نفكر لكي نحصد الهزائم أو ننصب الأفخاخ والكمائن؟ وحسناً يفعل بعض العرب بفتح ورشة للمساءلة النقدية والمناقشة العقلانية يشارك فيها فاعلون اجتماعيون من مختلف المذاهب والاتجاهات، سواء حول المشكلات المزمنة والمُرْجَأة في الداخل، أو حول القضايا المصيرية والتحديات الراهنة التي تثيرها التحولات والانفجارات على الساحة العربية والدولية. فلا مراء أن هذه من النقاط الإيجابية والبناءة في مواجهة حالة التراجع والتفكك.

والنقد لا يعني جلد الذات، بقدر ما يعني اجتراح الإمكانات وبناء القدرات باختراع الفرص وفتح الأبواب والمجالات. فلم تعد تجدي العملة الفكرية والرمزية التي نستخدمها في صناعة الحياة والإقامة في العالم. نحن لا ننفك عن نقد الولايات المتحدة بعقلية نضالية أحادية. فيما نحن أحوج ما نكون إلى التعلم منها، ذلك أن ما يتميز به المجتمع الأميركي والمجتمعات الغربية أو القوية والمزدهرة هو التعددية الفكرية والثقافية، أي ليس سيطرة هذه المدرسة الفكرية أو تلك الاستراتيجية العسكرية، بل القدرة الدائمة على إنتاج المدارس والمذاهب أو تغيير النظريات والاستراتيجيات. هذا ما نفتقر إليه: كسر المنطق الإيديولوجي للتعامل مع هوياتنا ووقائع حياتنا بمنطق الخلق والتحول، إنتاجا وإبداعا أو تخيلاً وابتكاراً.

وليطمئن الذين يخافون من النقد أو يخشون تغيير وجهة التفكير وعدته أو طريقته وسياسته لمواجهة الأخطار والتحديات. فالأزمة هي اليوم كونية بعد أن باتت المصائر والمصالح متشابكة. ولذا فالمعالجة ينبغي أن تكون وجودية بمعنى إنها تتجاوز صراع الحضارات أو صدام الإسلام والغرب. المسألة الآن هي مشكلة الإنسان الذي يواجه مأزقه، كما يتمثل في عجزه عن تدبر المشكلات الناتجة عن التطور العلمي والتقني الهائل، كما تمثل في مجالات الذرة والجينة والمعلومة والجمرة الخبيثة، أو كما يتمثل في فشله في مجابهة الأزمات والانفجارات الأمنية والاجتماعية.

لا اعتقد أن مجابهة تحولات العولمة وانفجارات التقنية، بما هو سائد أو ثابت من العقليات والأفكار أو الأدوات والمؤسسات، سواء تعلق الأمر بالليبرالية أو الحداثة أو العمل الدولي. لم يعد بالإمكان الدفاع عن الحقوق والحريات بديمقراطية تشومسكي أو يسارية بيار بورديو أو إناسية جان بودريار، أو بعقلية المثقف العربي بتهويماته العقائدية واستراتيجياته القومية الفاشلة في المقاطعة والممانعة. ولم يعد بالإمكان إدارة الشأن العالمي بصراعاته ومشكلاته، بما هو سائد من الأطر والقواعد والأساليب المسيطرة على هيئة الأمم المتحدة، أو على الجامعة العربية على ما هما عليه من الضعف والعجز أو الفشل والإخفاق. كذلك لا جدوى من التعامل مع المحافظين الجُدد بعقلية المحقق بوصفهم عصابة من المجرمين، إذ بذلك نقفز فوق الحقائق ونكون أكثر منهم محافظة. فهم يمثلون تغيراً وسط المشهد الفكري العالمي، من حيث تعاملهم مع الأحداث والأفكار، الأمر الذي يحمل على إعادة النظر في المفاهيم الراسخة والمناهج المتبعة والاستراتيجيات المرسومة

والمؤسسات القائمة. فلا شيء يبقى على ما هو عليه على وقع التحولات والانفجارات والانهيارات، لا الديمقراطية ولا حقوق الإنسان ولا قواعد العمل الكوكبي أو الشراكة العالمية.

الأمر يحتاج فكرياً إلى تغيير العدة والطريقة أو الوجهة والغاية، بحيث ننصرف إلى تفكيك المشهد العالمي، كما تشكل في العقل والمخيال أو في نماذج الثقافة وقوالب المعرفة أو في أطر النظر وأدوات العمل لإعادة تركيب الصورة من جديد ببناء هندسة فكرية جديدة، تتغير معها المهمة الوجودية والعدة الفكرية بقدر ما تتغير أنماط المصداقية وأشكال المشروعية وأدوات الفاعلية.

عقل تداولي

ما نحتاج إليه هو التدرب على عقل جديد أسميه العقل التداولي، من حيث إمكاناته وآلياته ومفاعيله في التوسط والتعدد أو في التواصل والتبادل أو في التركيب والتجاوز، فضلاً عن الخلق والتحول.

لغة التوسط

التداول هو في وجهه الأول إتقان لغة التوسط والحوار والتواصل. فالعلاقات بين البشر تبنى وتثمر بخلق البيئات والأوساط أو الوسائط والوسائل التي تتيح التواصل والتعارف والتبادل. فمن غير وسَط أو توسط من لغة ومحادثة أو حجة ومحاورة أو قاعدة ومؤسسة يسيطر العماء والخواء أو يعم الإقصاء والاستبداد.

العقل التواصلي

التواصل هو سمة الاجتماع البشري بما هو تبادل للخبرات والمعلومات أو تداول للسلع والعملات أو انتقال للأشخاص والعملاء.. ويشكل التواصل ميزة العصر بفضل ثورة المعلومات والتقنيات. والتواصل بين الناس يمكن أن يتم بصورة عمودية بين الأجيال والأطوار؛ كما يتم بصورة أفقية في المكان بين الطوائف والفئات داخل المجتمع الواحد، أو بين المجتمعات والثقافات على مستوى الكوكب.

المنهجية التعددية

الوجه الآخر للعقل التواصلي هو المنهج التعددي. والتعددية لا تدرك بمعناها البسيط والأحادي، وإنما هي مركب مفهومي له مستوياته المتعددة. الأول هو النظر إلى الواقع من حيث تعدد أبنيته وأصعدته ومساراته. الثاني النظر إلى المجتمع من حيث تعدد عناصره وقواه ومشروعياته. الثالث قبول الآخر بوصفه مختلفاً ومساوياً في آن. الرابع والأهم هو اقتناع المرء بأن هويته هي تعددية، بمعنى أنها سوية وجودية مبنية من تعارض الميول والأهواء أو التباس المعاني وتوتر الأضداد، بقدر ما هي مسرح لتعدد الأطياف والصور والشخوص والأصوات. ولذا فالتفكير على نحو تداولي ومن منظور تعددي، يعني أن مقاربة الظواهر وتفسير الوقائع ومعالجة المشكلات تحتاج إلى أكثر من منهج أو منطق أو نموذج.

الهوية الهجينة

مؤدى التوسط والتواصل والتعدد أن تمارس الهوية بصورة مفتوحة ومتحركة بكسر عقلية المحافظة والقوقعة. فالممكن والمثمر هو أن يقيم الواحد علاقات متغيرة ومتجددة مع الثوابت من الأسماء والنصوص والتراثات. ذلك أن المماهاة التامة مع الأصول مستحيلة، كما أن المساواة التامة مع النفس خاوية. كلاهما يولد الانغلاق والتعصب أو الجمود والتحجر. وقد يورث المحن والكوارث، بقدر ما يُحيل علاقة المرء بذاته إلى سجن ومتراس أو إلى داء وعصاب.

فالأحرى أن تفهم الهوية بعيداً عن منطق الصفاء والتجانس أو التطرف والتمركز، لكي تعقل كصيغة مركبة أو كوحدة تركيبية منسوجة من تعدد الوجوه والأطوار والأنماط، بقدر ما تمارس كتسوية هي حصيلة التشابك والتفاعل بين مختلف العناصر والميول والروافد. ولعل هذا ما يحصل اليوم بشكل خاص، مع ازدياد إمكانات التواصل بين البشر بصورة لا سابق لها: تشكل هويات هجينة ومطعمة هي متعددة اللغة والجنسية والإقامة، وربما متعددة الوظيفة والمهمة. مما يعني أن الهوية هي تركيبة يعاد صوغها وتخيلها باستمرار. حتى هوية ابن لادن وأتباعه إنما هي حصيلة أطياف الذاكرة وأشباحها، بقدر ما هي ثمرة هوامات الحداثة وأزماتها.

وأيًّا يكن، فالأغنى والأقوى أن تعامل الهويات الدينية والقومية أو الفردية والجمعية، كخليط من العقائد والصور، أو ككوكتيل من الأساليب والتقاليد، أو كتوليفة من الروابط والنسب، أو كتسوية دائمة مع الذات والغير أو مع الواقع والعالم. من غير ذلك ندخل في نفق التنابذ والتنازع والاقتتال.

سياسة الاعتراف

من ثمرات التواصل والتوسط والتعدد التحرر من استراتيجية الرفض والإقصاء للمختلف، للتمرس بسياسة الاعتراف المتبادل. ولعل هذا ما يفتقر إليه العرب الآن، من حيث علاقاتهم وروابطهم، بعد فشل أو استهلاك الشعارات المتعلقة بالعمل العربي والتحول الديمقراطي والمجتمع المدني. والذي يتمرس بسياسة الاعتراف يهتم دوماً بخلق اللغات والصيغ أو القواعد والقيم التي تضاعف إمكانات التواصل والتبادل، بقدر ما توسع من مساحة الحرية وهامش الاختيار، والتي تجعل ممارسة السلطات أقل كلفة ووطأة، بقدر ما تغلب العلاقات الأفقية والتبادلية على الأوامر العمودية والبيروقراطية.

ولذا فالمجتمع التداولي ليس مجتمع نخب وإنما هو مجتمع حقول وقطاعات للعمل والإنتاج، تتغلب فيه معايير الاختصاص على عقلية الخاصة والنخبة أو الطليعة، بقدر ما يتمرس أهله بلغة الشراكة والتداول، للمعارف والخبرات، سواء في حل المشكلات أو في تنمية الحياة، أكان ذلك على مستوى قطاع من القطاعات أو على مستوى المجتمع بأسره.

وإذا كانت ثورة التقنيات تطلق إمكانات التبادل بين البشر على نحو لا سابق له، وتحول الفرد من رقم في قطيع إلى فاعل بشري بقدر ما تجعل العمل يعتمد على تشغيل القدرات

الذهنية واستخدام أنظمة المعلومات، فإن هذه الثورة التي نخشى منها هي التي تفتح الإمكانات والفرص لتحرير الناس، وليس المثقفين من دعاة الحرية، بل هي سوف تسهم في تحرير هؤلاء من هواماتهم النخبوية الاستبدادية ووصايتهم الفاشلة على القيم، لكي يتصرفوا كعاملين في حقول عملهم كبقية الناس.

الاعتماد المتبادل

سياسة الاعتراف تعني ألا ننظر إلى الآخر في الخارج بعين الخشية وعقلية المؤامرة. فليس الآخر هو الجحيم. قد يكون من نتمنى أن نصبح مثله أو من نحتاج إليه ونفيد منه إذا أحسنا التعامل معه؛ وفي المقابل ليس الشبيه في الداخل هو دوماً الفردوس، قد يصبح عائقاً يعرقل مشاريع الإصلاح والتنمية، أو لغماً يدمر الوحدة إذا أسأنا التعامل معه. ولذا ليس المطلوب تعظيم الذات للتهجم على الغرب، وبالطبع ليس المطلوب جلد الذات للذوبان في الآخر. كلاهما موقفان يشهدان على القصور العقلي والهزال الوجودي. فالأحرى والأجدى أن نفكر ونعمل بالإفادة من مآثر الماضين ومنجزات المحدثين والمعاصرين على سبيل التواصل الحي والتفاعل الخلاق والإضافة المبتكرة. ومن يفكر على هذا النحو يعتبر العالم مداه الحيوي، ويعمل على إتقان لغة الشراكة والمداولة مع الغير. فالآخر الذي نخشى منه بات شطرنا الآخر الذي لا انفكاك عنه في عصر الاعتماد المتبادل والتأثير المتبادل. ولذا باتت المسؤولية متبادلة في صناعة الحياة وإدارة المصائر.

إذا كان منطق التداول يغير علاقتنا بالذات والآخر فإنه يغير خاصة علاقتنا بالفكر والحقيقة أو بالواقع والعالم.

منطق الخلق والتحول

لغة التداول لا تعني التعامل مع الأفكار والعناوين، على نحو ما ورائي أو مثالي بوصفها جواهز ثابتة أو أيقونات مقدسة أو حقائق مطلقة ومتعالية على الأحداث والتجارب. من يفعل ذلك يحول المقولات والشعارات إلى قوالب فكرية متحجرة أو إلى متاريس عقائدية أو إلى أفخاخ ذاتية لحجب الكائن أو لشن الحرب على الآخر أو لتفجير المشاريع الحضارية والتنموية، كما تشهد التجارب في العالم العربي بشكل خاص، حيث تحولت الشعارات إلى أضدادها على أرض الممارسات. فالأحرى أن تعامل الأفكار بمنطق الخلق والتحويل، بوصفها طاقتنا الحية وقدرتنا على التغيير والتجديد، بحيث نتغير معها ونسهم في تغيير الآخر، ونعمل على إغنائها وتطويرها بقدر ما ننجح في تغيير بنية الواقع أو صورة العالم. ولذا فالذي يفكر على نحو تداولي لا يتعاطى مع العقلانية أو الديمقراطية أو الحداثة، كثوابت يبشر بها ويغار عليها، وإنما يعمل على إعادة صوغها وتطويرها في أتون المعاناة والتجارب، بتحويل علاقته بالظاهرات والمشكلات والآفات والأزمات إلى أطر نظرية أو صيغ عقلانية أو قواعد عملية أو قيم تداولية لها مصداقيتها وفاعليتها في الفهم والتشخيص، أو في العمل والتنظيم، أو في التقدير والتدبير.

فكر تركيبي

من مقتضيات التداول التعامل مع الواقع لا بعين ضيقة أو بصورة تبسيطية وحيدة

الجانب، بل على نحو تركيبي وبصورة مرنة ومفتوحة. فالواقع ليس معطى نهائياً أو نظاماً أحاديا خطياً أو حتمية صارمة ومقفلة. الأحرى النظر إليه كمعطى متحرك وملتبس بقدر ما هو مسرح للعب والمجازفة أو مجال للخرق والعبور؛ والأجدى أن يُعامل كحقل للإمكان مفتوح على تعدد المعاني والاحتمالات بقدر ما هو مركب أو منسوج من تعدد الوجوه والمستويات أو الخطوط والمسارات أو المواقع والعتبات. ولذا فالذي يفكر بصورة حية وخارقة لا يلجأ إلى نفي الوقائع، إذ بذلك يستقيل من مهمته الفكرية وتنتقم منه الحقائق، وإنما يشتغل على وقائع حياته ومعطيات وجوده بالدرس والتحليل، بالفهم والتخيل، بالتعقل والتدبر، لاجتراح إمكانات جديدة للحياة، سواء بالانفتاح على الجوانب المعتمة والمهمشة أو باقتحام مناطق غير مسبوقة وتشكيل عوالم جديدة يُعاد معها تشكيل الواقع، بابتكار وقائع معرفية أو تقنية أو فنية أو سياسية أو استراتيجية. فإن كان الواحد على الهامش، فليس ذلك كارثة، بل يعني أنه لا يحسن تشغيل عقله أو استثمار موارده، وأن عليه أن يغير طريقته في التفكير أو سياسته في إدارة الأهواء والهويات أو منهجه في التعامل مع الأحداث. هذا شأن المجتمعات القوية والفاعلة بأعمالها ومنجزاتها: لا تنفك عن ممارسة حيويتها الفكرية واستثمار طاقتها العقلية بابتكار الجديد والأصيل أو المفيد والملائم أو الخارق والمؤثر.

الأفق الكوكبي

من يندرج في زمنه يفكر بصورة خلاقة وبناءة بقدر ما يعمل بصورة راهنة وكوكبية. ومن هذا شأنه لا يخشى المتغيرات، فكيف إذا كان الواقع الماثل هو ما هو عليه من العجز والإخفاق أو التردي والتراجع، كما هي الحال في العالم العربي بنوع خاص. فالأحرى التعامل مع التحولات بوصفها فرصة سانحة لكي تتغير عما نحن عليه، ونسهم في تغيير المشهد العالمي بما ننتجه من المعارف والحقائق أو السلع والأدوات أو القيم والثروات. نحن جزء من العالم، فعلينا أن نطرح أسئلته ونشارك في صنعه، بوصفه مدانا الحيوي وأفقنا الكوكبي، خاصة بعد أن أصبح من المتعذر الفصل بين الخصوصي والعالمي أو بين المحلي والكوني. وهكذا فالذي يفكر بصورة مثمرة يهتم دوماً بفتح الفرص والأبواب والمجالات، أما الذي ينعزل ويحافظ إنما يخسر ما يريد المحافظة عليه.

المنظور المستقبلي:

الوجه الآخر للتفكير الكوكبي هو المنظور المستقبلي. والمستقبليات باتت منذ زمن مجالاً للدرس والبحث، بعد أن تزايدت المخاطر على الأرض والحياة والإنسان، وبعد أن أصبح الإنسان يمتلك قدرات على الفعل والتأثر تتفوق قدراته على التوقع والتدبير.

والتفكير المستقبلي لا- يعني الرجم بالغيب أو الانشغال برسم سيناريوهات مستحيلة أو وضع استراتيجيات للهيمنة والتسلط. فمفتاح التوقع لما هو آت والإعداد للمستقبل الداهم هو فهم الحاضر وتشخيصه بالانخراط في صنعه وتحويله فكرياً وعملياً، عبر توظيف التراث الحي الذي لا- ينفك يحضر. وهكذا من يحسن فهم ماضيه وتدبر واقعه، يهيئ لمستقبله بقدر ما يحسن استثمار تراثه. وتلك هي المعادلة التي تتيح بناء العلاقة بين

الأزمنة بصورة متوازنة ومخصبة، حية وراهنة، بقدر تتيح لنا أن نتحرر من الادلوجات والطوباويات التي تجعلنا أسرى ماض يستحيل أن يعود كما كان عليه، أو تُغرقنا في أوهام مستقبل لا ينفك يبتعد.

هذا أحوج ما نحتاج إليه الآن عرباً وبشراً، في مواجهة التحديات والأزمات والمخاطر المشتركة الأمنية والبيئية، أو الصحية والاجتماعية، كما تتجلى في تفاقم العنف أو تزايد الفقر والتسلط أو تدهور البيئة والمجال الحيوي: تجديد أشكال المصداقية المعرفية والمشروعية الخلقية والسياسية، بتغذية العناوين وتجديد المفاهيم والمعايير المتعلقة بمفردات الوجود، بالإنسان والعقل والحقيقة أو بالحقوق والعدالة والحرية أو بالتقدم والسلام والنمو البشري أو العمل الحضاري.

إنها سياسة فكرية أساسها عقلية الشراكة والمداولة والإحساس بالمسؤولية المتبادلة عن المصائر، ومفرداتها: عقل تواصلي، وفكر تركيبي، منهج تعددي، ومعيار تبادلي، منظور مستقبلي، وأفق كوكبي، لغة وسيطة، وهوية مفتوحة وهجينة. هذا هو الرهان الآن: إدارة هوياتنا وأفكارنا وثرواتنا وعلاقاتنا بالعالم بابتكار الجديد من الصيغ والمهام أو الطرق والوسائل والسبل. أما ثقافة التطرف والتعصب والكره والخوف والعداء والصدام والقتل والانشداد إلى الوراء وعبادة الأسماء والأفكار، فمآلها عربياً أو عالمياً تفخيخ العلاقات بين البشر، والانتقال من مأزق إلى سواه، ومن صدمة إلى أخرى، ومن خسارة إلى خسارة أكثر فداحة.

****

*) كاتب ومفكر لبناني.